ابستمولوجيا علوم الاعلام و الاتصال

الابستمولوجيا هي الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها بغرض تحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها وحصيلتها الموضوعية " وإذا كان الفرنسيون يميزون بين نظرية المعرفة والابستمولوجيا بمعناها الدقيق فأن الألمان أيضاً يميزون بين نظرية المعرفة والابستمولوجيا وأن كانوا يقصدون بالابستمولوجيا فلسفة العلوم جميعها , ومهما كان من أقر هذه الاختلافات التي تنشأ حول تحديد معنى الابستمولوجيا فأننا نعني بها في المقام الأول بيان شروط المعرفة البشرية وقيمتها وحدودها وموضوعيتها من زاوية تطور العلم المعاصر .

أن مقولة تحديد معنى الابستمولوجيا يرجع إلى ارتباطها بعدة أبحاث معرفية تدور حولها , فالابستمولوجيا ترتبط بنظرية المعرفة كما ترتبط بفلسفة العلوم .

والابستمولوجيا مرتبطة أيضاً بنظرية المعرفة بمعناها التقليدي من حيث أنها تدرس إمكانية المعرفة , وحدودها وطبيعتها ولكن لامن زاوية الموقف الخاص بل من زاوية التطور العلمي المستمر , وبكلمة واحدة أن الابستمولوجيا "هي نظرية علمية في المعرفة تتلون بلون المرحلة التي يجتازها العلم في سياق تطوره ونموه على مر العصور" .

والخلاصة أننا إذا أردنا تعريف الابستمولوجيا تعريفاً دقيقاً نقول "إنها تلك الابحاث المعرفية , فلسفة العلوم , نظرية المعرفة , مناهج العلوم , منظوراً إليها من زاوية علمية معاصرة" أي من خلال المرحلة الراهنة لتطور الفكر العلمي والفلسفي كما أنها علم المعرفة التي تختص ببحث العلاقة بين " الذات والموضوع " (إن الإنسان يبني معرفته بهذا العالم من خلال نشاطه العلمي والذهني , والبناء الذي يعتمده الإنسان بواسطة هذا النشاط هو ما نسميه العلم والمعرفة , أما لفحص عملية البناء نفسها " تتبع مراحلها , نقد أسسها , بيان مدى ترابط أجزائها محاولة البحث عن ثوابت صياغتها صياغة تعميمية , محاولة استباق نتائجها " فذلك ما يشكل موضوع الابستمولوجيا)

*** سمات نظرية المعرفة العلمية عند باشلار :**

تتميز نظرية المعرفة العلمية عند باشلار بمجموعة من السمات الأساسية والتي تميزها عن باقي الابستمولوجيات أو " نظريات المعرفة " عند الفلاسفة المحدثين والمعاصرين من هذه السمات :

1- أنها ترفض العقل قبل العلمي وتقول لا لعلم الأمس وللطرق المضادة في التفكير وليس معنى ذلك أنها فلسفة سلبية وإنما هي فلسفة بناءة ترى في الفكر عامل تطور عندما ينقد الواقع فهي فلسفة لا تعترف ببناء أو نسق نهائي للفكر العلمي بل ترى فيه فقط بناء يتجدد باستمرار على ضوء التطورات العلمية المستمرة .

2-أن الابستمولوجيا الباشلارية تستلزم النظر إلى المعرفة من زاوية تطورها في الزمان أي بوصفها عملية تطور ونمو متصلة وبعبارة أخرى فأنه لابد من النظر إلى

المعرفة , أية معرفة بوصفها نتيجة لمعرفة سابقة بالنسبة إلى معرفة أكثر تقدماً وتطوراً.
3-تتميز نظرية المعرفة العلمية عند باشلار بالمقارنات المتعددة على مستويات متعددة وهذه المقارنات تأخذ شكلاً تأريخياً نقدياً , وهذا الشكل التأريخي النقدي هو الشكل المنهجي الذي يجري تطبيقه على تأريخ العلوم , وعلى الأفكار الأساسية التي نستخدمها وبينها العلماء خلال تطورهم العلمي .
4-أن السمة الأساسية في الابستمولوجيا الباشلارية هي اهتمامها المتزايد بجوانب النقص والخطأ والفشل في حقول العلم أكثر من اهتمامها بالايجابيات وبهذه الطريقة تصبح الموضوعات العلمية عبارة عن مجموعة من الانتقادات التي وجهت إلى صورتها قبل العلمية أو صورتها الحسية القديمة , إن المهم في العلم ليس الصورة الحسية المتخيلة التي يقدمها هذا العالم أو ذاك على أنها أشياء طبيعة بل إن المهم هو الانتقادات وأنواع الرفض التي تلاقيها هذه الصورة من طرف العلماء الاخرين .
5-أن الابستمولوجيا الباشلارية هي نظرية علمية في المعرفة لأنها تستقي موضوعاتها ومسائلها ومناهجها من العلم ذاته من المشاكل التي يطرحها تقدم العلم على العلماء المختصين , فهي أذن تعني بالمعرفة العلمية أساساً وتحاول أن تقدم حلولاً علمية لقضايا المعرفة عامة , بقدر ما تنتمي هذه القضايا إلى ميادين البحث العلمي .
6-كما أن أبستمولوجيا باشلار نظرية في المعرفة غير مغلقة وغير مكتملة فهي لا تنشد المعرفة المغلقة على ذاتها , وهي لا تذهب مع دعاوى الفلاسفة الذين يتوهمون أنهم فرغوا من بناء نسق معرفي تام ومكتمل ونهائي , إنها لا تريد أن تتقيد بنسق فلسفي مؤكد أنما هي تتمسك بأساسين : "نسبية المعرفة" و "مبدأ القابلية للمراجعة" , والابستمولوجيا بهذا المعنى يعتبرها صاحبها باشلار "هي الفلسفة العلمية الوحيدة التي تواكب أي تطور يطرأ في حقل العلم".
7-لقد أوضح باشلار في كتابه فلسفة لا أو " فلسفة النفي " الافاق العلمية الجديدة التي من الممكن الوصول إليها عن طريق الجدل أو النفي . يقول باشلار : " أنه الى جانب المعرفة التي تزيد وتؤدي الى تغيرات تدريجية في الفكر العلمي سنجد سبباً يدعو الى تجدد يكاد لاينضب في الفكر العلمي , والواقع أن الفكر العلمي يتطور بين حدين متعارضين ينتقل مثلاً من الهندسة الإقليدية"الكلاسيكية" الى الهندسات اللاإقليدية "المعقدة" ومن الميكانيكا النيوتونية "التطبيقية" الى الميكانيكا اللانيوتونية "الافتراضية " لدى انشتاين ".

***الابستمولوجيا الباشلارية :**

أسهم التطور العلمي في العصر الحاضر في تغيير كبير في مفهوم " الابستومولوجيا " فأصبح الفلاسفة يبحثون الابستومولوجيا في إطار المعرفة العلمية وحدها بعد أن كانت الابستومولوجيا التقليدية تختص بالبحث في أسئلة تقليدية حول أمكانية قيام المعرفة وإذا كانت ممكنة أو غير ممكنة ووسائلها وحدودها .

لقد أوضح "لالاند" في معجمه الفلسفي أن مفهوم الابستمولوجيا ينصب أساساً على الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على

الصلة الوثيقة بين العلم والابستومولوجيا علاوة على الصلة المتينة بينهما وبين الفلسفة , وكان من نتيجة التطور العلمي المعاصر أن كثيراً من الدارسين المعاصرين أصبحوا يميزون بين الابستمولوجيا التي تهتم بالمعرفة العلمية فحسب ونظرية المعرفة بشكلها ومباحثها التقليدية, وفيما ترتكز المعرفة العلمية على أدوات القياس والتجريب فأن المعرفة الحسية ترتكز على الحس فقط والمعرفة تؤكد دائماً على الناحية الثانية ذلك لأن حواسنا هي وسيلتنا الأولى والأخيرة لاكتساب هذين النوعين من المعرفة ووسيلتنا الأولى لمعرفة العالم الخارجي والدخول معه في علاقات , ووسيلتنا الأخيرة لتحصيل المعرفة العلمية ذاتها .

إن المشكلة الابستمولوجية الحاضرة تجاوز الإطار المعرفي السابق على تطور العلم حيث كانت الظواهر قبل التطور العلمي تعالج في سكونها ولكن الثابت الآن أن الظواهر يتلازم فيها السكون والحركة "

لقد ميز باشلار بين ثلاث مراحل في تكوين العقل العلمي :

1-المرحلة الأولى تمثل الحالة ما قبل العلمية وتشتمل على الأزمنة الكلاسيكية القديمة وعصر النهضة والجهود المستمرة في القرن السادس عشر والسابع عشر وحتى في القرن الثامن عشر.

2-المرحلة الثانية التي تمثل الحالة العلمية والتي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر وتشمل القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

3-أما المرحلة الثالثة والاخيرة فهي مرحلة العقل العلمي الجديد وتبدأ من عام 1905 حيث بدأت نظرية أنشتاين في النسبية تغير كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي كانت سائدة قبل ذلك وقد شهد النصف الاول من القرن العشرين تطوراً مذهلاً في مجال العلوم .

لقد أراد باشلار أن يربط الابستمولوجيا بتطور العلوم فأستلهم وقائع العلم وفروض الرياضيات وبدأ بالعلوم الفيزيائية حتى تأتى له أن يضع المادة موضعاً جديداً وهذا هو الطريق الذي ضمن لباشلار الانتهاء إلى مذهبه في " المادية العقلانية " أو " العقلانية العلمية " .

وإذا كنا قد قسمنا مراحل الابستمولوجيا الى ثلاث مراحل فإن باشلار يحدد سمات كل مرحلة ويميزها عن الاخرى , حسب مفهومه لتطور العقل العلمي :

1-المرحلة الأولى هي الحالة الملموسة : إذ ينشغل العقل بالصور الأولى للظاهرة ويعتمد على صيغ فلسفية تمجد الطبيعة وتؤمن بوحدة العلم .

2-المرحلة الثانية هي الحالة الملموسة المجردة : إذ يضيف العقل الى التجربة الفيزيائية الأشكال الهندسية ويستند إلى فلسفة البساطة وهنا ما يزال العقل في وضع متناقض فهو واثق من تجريده بقدر ما يكون هذا التجريد ماثلاً بوضوح في حدس " ملموس " أو "محسوس ".

3- المرحلة الثالثة هي الحالة المجردة : حيث يتدخل العقل بمعالجة المعلومات المأخوذة من الواقع لكنها منفصلة عن التجربة المباشرة أو بمعنى آخر يكون العقل والتجربة في هذه المرحلة متلازمين كل منهما متمم للآخر , وبما أنه يفترض بكل

معرفة علمية أن يتحدد بنائها في كل لحظة حسب تطور العلم والعلوم, دونما أي اهتمام بالمحافظة على هذا التطور التأريخي " لنظرية المعرفة ".

إن الابستمولوجيا المعاصرة كما نجدها عند باشلار تستند إلى معطيات الثورة العلمية المعاصرة في مجال العلوم الرياضية والعلوم الفيزيائية بصفة خاصة لكي نؤكد أن آثار هذه الثورة لم تمس بمبادئ تلك العلوم فحسب بل لحقت أيضاً بنية الفكر الإنساني ذاته , أن ما تنبهنا إليه الثورة العلمية المعاصرة في نظر باشلار هو أن الفكر الإنساني لا يحيا علاقة وحيدة الجانب مع التطور العلمي , فهو ليس منتجاً لهذا التطور العلمي فحسب , بل إنه متأثر بنتائج هذا التطور أيضاً , وهذا ما لم تنتبه إليه الفلسفة الكلاسيكية التي استخلصت مبادئ الفكر الإنساني في مرحلة معينة من تأريخ العلوم فأضفت على هذه المبادئ صفة الإطلاق , واعتقدت نتيجة لذلك أن هذه المبادئ هي بنية الفكر الإنساني ذاته .

أن الهدف هنا هو القول بوجود علاقة جدلية بين الفكر الإنساني وبين تطور المعرفة العلمية التي ينتجها , أن المعرفة العلمية من نتاج الفكر الإنساني لاشك في ذلك , ولكن الفكر الإنساني بدوره من نتاج هذه المعرفة , وأن النتيجة الاساسية اللازمة عن هذه الوجهة من النظر هي القول ببنية متغيرة للفكر الإنساني بفعل من تطور المعرفة العلمية , وهذا هو المعنى الذي يقصده باشلار عندما يقول بأن القيم الجديدة التي حملتها معها الثورة العلمية المعاصرة هي قيم نفسية الى جانب كونها قيماً معرفية .

وفي هذا يقول باشلار : "إذا وضعنا مشكلة الجدة العلمية على الصعيد النفسي الخالص, لن يفوتنا أن نرى هذا السير الثوري للعلم المعاصر لابد وأن يؤثر على بنية الفكر , فالفكر بنية قابلة للتغير , منذ اللحظة التي يكون فيها للمعرفة تأريخ " .

وبهذه الكيفية فأن تأريخ المعرفة العلمية يمكن أن يكون في الوقت ذاته تأريخ المتغيرات التي لحقت الفكر الإنساني منذ أن بدأ هذا الفكر في إنتاج معرفة علمية , وأن القول بعقل إنساني ثابت في بنيته , معناه أدراك تأريخ العلوم , وتأريخ الفكر الإنساني كما لو كانا واقعين منفصلين ومعناه عدم القدرة على إستخلاص القيم الابستمولوجية التي تبرز مع كل فترة من تأريخ العلوم , وعلى أساس هذا الاعتقاد بوجود فكر إنساني ذي بنية متطورة يقترح باشلار أن تكون أحدى مهام الابستمولوجيا المعاصرة البحث في أثر المعارف العلمية في تطور بنية الفكر الانساني .

وفي هذا التأكيد يستفيد باشلار من التقدم السريع الذي حققته العلوم المعاصرة والذي استطاعت بفضله أن تصل إلى معرفة بعض الظواهر الكونية التي لم يكن العلم في القرون السابقة قادراً على معرفتها ولكن متوفراً لديه بعض الوسائل على ملاحظتها ملاحظة دقيقة .

فلكي نثبت أن للمعرفة العلمية حدود ينبغي لنا في نظر باشلار ألا نقف عند بيان عجز عن حل مشكلة ما , بل إن نرسم الحدود النهائية التي لا تستطيع المعرفة العلمية أن تتجاوزها , غير أن هذا الأمر لا يجد له مبرراً في تأريخ تقدم المعرفة

العلمية , لذلك يصح لنا الاستفادة من هذا التأريخ أن نقول بأن المشاكل التي تبدو غير قابلة للحل عندما يتم بفضل تقدم العلم بلوغ وضع جدير لها , بمعرفة المعطيات الموضوعية المتعلقة بها . أن المسألة أذن ليست في قدرة أو عدم قدرة العلم على حل بعض المشاكل , وأن وضع حدود لمعرفة العلم لا يمكن أن يأتي من خارج العلم بل من العلم ذاته .

فالعلم هو الذي يضع حدوده الخاصة وعندما يكون قد حدد بوضوح هذه الحدود فأنه يكون قد تجاوزها , نستخلص مما سبق أن مفهوم الحدود الابستمولوجية بالنسبة للمعرفة العلمية ليست إلا توقفاً لحظياً لهذه المعرفة وأنه لا يمكن أن نرسم بصورة موضوعية هذه الحدود , ولذلك فأن الصيغة الأكثر ملائمة للتعبير عن هذا هي القول بأن الحدود بالنسبة للعلم تعني برنامج عمل أكثر مما تعني عوائق مطلقة .

إن العقل العلمي يمنعنا من تكوين رأي حول قضايا لا نفهمها وحول قضايا لا نحسن صياغتها بوضوح, فبالنسبة إلى العقل تعتبر كل معرفة جواباً على مشكلة, فإذا لم يكن ثمة "مشكلة " لا يمكن أن تكون ثمة معرفة علمية .

وعلى الرغم من أن باشلار كسب من الفلسفة والعلم إلا أنه وصل إلى الفلسفة عن طريق تأمل العلوم ونشاطه موجه إلى اتجاهين يبدو أنهما متضادان لأول وهلة فنحن نستطيع أن نعده في المقام الأول مواصلاً للفلسفة مع تحديدها في عدة نقاط فهو يعارض كل تصور من شأنه أن يبسط منهج العلوم , فالعلم في جوهره وضع في علاقة وهذه العلاقات متعددة ودقيقة بل هي في تطور مطرد , وباشلار يعرض أفكاره عن منهج العلم أول الامر في كتابه " الفكر العلمي الجديد " ثم يطورها في مؤلفاته " العقلانية التطبيقية "و"فلسفة النفي " أو " فلسفة الا" و" تجربة المكان في الفلسفة المعاصرة " و"ديالكتيك الديمومة أو الزمان " و" الفعالية العقلانية للفيزياء المعاصرة " و" بحث في المعرفة التقريبية " و" المادية العقلية " وهو ينطلق في فهمه " النزعة العقلية التطبيقية " أو " التجريبية التكنلوجية " أو " المادية العقلية " مبيناً كيف تتطابق النزعة العقلية مع النزعة التجريبية.

وحول المهام الأساسية للابستمولوجيا الباشلارية يحدد د. علي حسين كركي هذه المهام لتحديد أن المهمة الأولى والأساسية هي إبراز القيم الابستمولوجية التي تفرزها الممارسة العملية وذلك بقطع الطريق على كل ما تحاول الفلسفة إدخاله في العلم من قيم أخلاقية ودينية وجمالية . ولكن ما هي هذه القيم الابستمولوجية وما مصدرها كيف تفرض نفسها ؟ إن مصدر هذه القيم النظريات العلمية ليس كل النظريات العلمية بل الجديدة والثورية منها , وهذا التحديد لمهمة فلسفة العلوم تحديد إيجابي فبموجبه لا تكون فلسفة العلوم تدخلاً فلسفياً في العلم لتبرير أهداف خارجة عنه , بل تكون استيعابا للقيم العلمية الجديدة , التي يفرزها التطور العلمي , وبمعنى أخر " أن باشلار لا يريد أن يقيم نظرية في المعرفة تحتوي النتائج العلمية لتحديد أهداف أيديولوجية , ولكن ثمة شروط لابد منها لتتمكن فلسفة العلوم من إبراز القيم الابستمولوجية التي أنتجها التطور العلمي .

أما الثانية , فهي البحث في أثر تطور المعارف على بنية الفكر , سيؤدي هذا البحث الى فوضى في العقل مخالف للموقف الفلسفي التقليدي إنه موقف مربك للفكر

فالعقل بفعل تطور المعارف العلمية , وتأثيرها في بيئته سيغدو دينامكيا فعالاً , إن فلسفة العلوم مع هذا الفهم الدينامكي لبيئة العقل التي تتعارض وتطور العلم , بل تستقبل القيم الجديدة حتى وإن كانت مناقضة ومخالفة لتصورات فلسفية سابقة .

أما المهمة الثالثة فهي التحليل النفسي للفلسفة الموضوعية فقد نقل باشلار هذه النظرية إلى الابستمولوجيا فافترض أن ثمة مكبوتات عقلية لدى الباحث العلمي على الابستمولوجي أن يبحث عنها ليظهر أثرها في البحث العلمي , على فيلسوف العلم أن يكون المحلل النفسي لعمل الباحث , بمعنى أن عليه افتراض جانب باطني ديناميكي في العمل العلمي يؤثر على هذا العمل , لذا وكما أن إدراك المكبوتات والعقد النفسية من شأنه مساعدتنا على فهم السلوك الإنساني والحياة النفسية فإن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية سيمكننا من فهم هذه المعرفة في تطورها أو نكوصها أو توقفها , وهو يسميه باشلار عوائق إبستمولوجية .